

(الإفخارستيا)

رحلة إلى الملكوت

عن كتاب «من أجل حياة العالم»

للأب الكسندر شميمن

ترجمة وتعريب

الدكتور جرجس كامل

الإفخارستيا

رحلة إلى الملكوت

عن كتاب

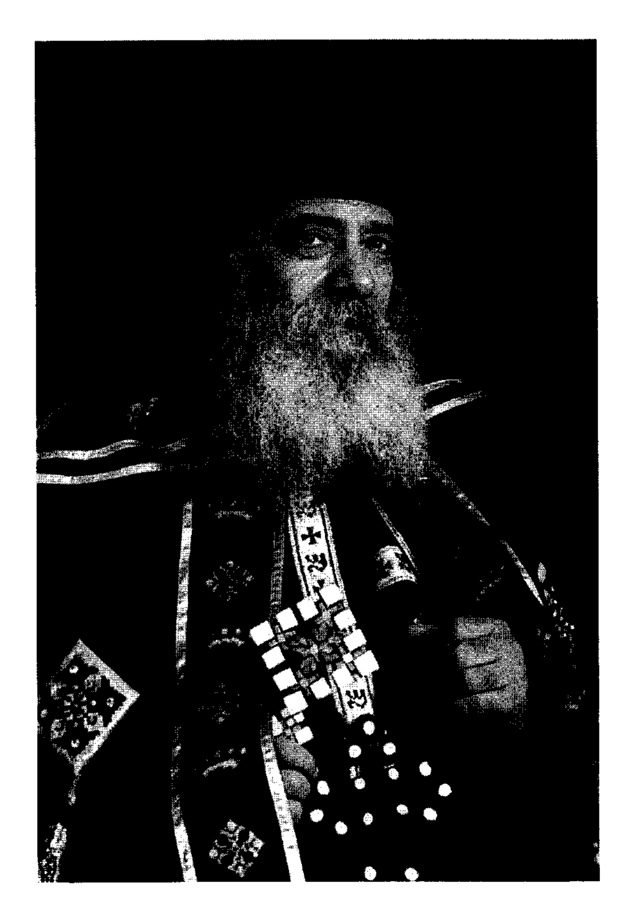
«من أجل حياة العالم»

للأب

ألكسندر شميمن

ترجمة وتعريب الدكتور / جرجس كامل

الكتاب	: الإفخارستيا (عن كتاب من أجل حياة العالم)
المؤلف	: الأب ألكسندر شميمن
ترجمة وتعريب	: دكتور جرجس كامل
الناشر	: جي . سي . سنتر
تصميم الغلاف وأعمال الجرافيك	: جي . سي . سنتر ـ مصر الجديدة ت : ٢٦٢٣٣٨١٢٧
الطبعة	: الأولى أكتوبر ٢٠٠٩م



قداسة البابا شنوده الثالث
بابا الإسكندرية وبطريرك
الكرازة المرقسية

\- ١ -

الإفخارستيا
سر الشكر وسر الدخول في الفرح

تم رفضُ المسيح في هذا العالم.

وكان المسيح هو النموذج الكامل والتعبير الأكمل للحياة كما أرادها الله. في حياته تجمعت حياة العالم المتمزقة إلى شظايا. كان هو ضربات قلب العالم، ولكن العالم قتله. ومات العالم نفسه في هذه الجريمة ... جريمة قتل الحياة.

وفقد العالم الفرصة الأخيرة له ليصير فردوس الله الذي خلقه ليكونه.

ونحن نقدر أن نستمر في تطوير أمور جديدة وأفضل.

نستطيع أن نبني ونطوِّر مجتمعاً إنسانياً قد يحفظنا من أن نفني بعضنا البعض.

ولكن حين رفض العالمُ المسيحَ، رفض الحياة الحقيقية للعالم، وكانت بداية النهاية.

وكان لهذا الرفض نهايته المحتومة: أن يُصلب المسيح لخيرنا مثلما قال الفيلسوف باسكال: «المسيح يتعذب حتى نهاية العالم».

و رغم ذلك، تبدو المسيحية غالباً، وهي تكرز أنه إذا حاول الناس جاهدين بقدر كاف أن يحيوا حياتهم كمسيحيين يمكن أن ينعكس وضع الصلب إلى حد ما. ذلك، لأن المسيحية كانت قد نسيت نفسها، تناست، ودائماً أن عليها ومثل كل شيء، أن تقف عند الصليب.

ليس لأن هذا العالم لا يمكن أن يتحسن حاله. فإن أحد أهدافنا هو بالتأكيد أن نعمل لأجل السلام، والعدل والحرية. ولكن وبينما يمكن للعالم أن يتحسن، فإنه لا يمكن وبأي حال أبداً أن يصبح المكان الذي قصد الله أن يكونه.

والمسيحية لا تدين العالم، بل أدان العالمُ نفسَه، حين أدان على رابية الجلجثة ذلك الواحد الذي هو وحده « نفس » هذا العالم الحقيقية . «كان في العالم، وكون العالم به، ولم يعرفه العالم» (يو ١: ١٠).

وإن كنا نفكِّر بجِّدية في المعنى الحقيقي، في المدى الحقيقي لهذه الكلمات، نعلم أننا كمسيحيين وبقدر ما نظل مسيحيين فنحن وأول كل شيء، شهود على هذه « النهاية » ...

نهاية كل فرح طبيعي،

نهاية كل شبع للإنسان مع العالم ومع نفسه.

نهاية، الحياة ذاتها، «كسعي إلى السعادة» معتدل نمارسه نحن بتعقل وحكمة.

وليس على المسيحيين أن ينتظروا المعاصرين المناصرين للقلق الوجودي، واليأس والسَخف، ليدركوا كل ذلك.

وبالرغم أن المسيحيين، وعبر تاريخهم الطويل قد نسوا وبشكل كبير وعميق **معنى الصليب**، وراحوا يستمتعون بالحياة وكأن «شيئاً لم يحدث»، وبالرغم من أن كل واحد منا، قد أخذ لنفسه «وقتاً مستقطعاً»، فأنه يعرف أن العالم الذي مات المسيح فيه، قد انتهت « حياته الطبيعية».

ـ ٢ ـ

ومع هذا، ومنذ بواكير بدايات المسيحية. كانت هي إستعلان الفرح، الفرح الوحيد الممكن على الأرض، فرح جعل من المستحيل أن يكون كل فرح تظنه هو فرح ممكن.

ولكن، وفي استحالة هذا الفرح، وفي عمق أعماق هذه الظلمة أعلنت المسيحية **فرحاً جديداً** مشبعاً لا يدانيه فرح، بل ونقلته، ومع هذا الفرح، حوّلت النهاية إلى بداية. وبدون إستعلان هذا الفرح، يصعب علينا فهم المسيحية. فبهذا الفرح وحده، كانت الكنيسة منتصرة في العالم، وقد خسرت العالم، حين خسرت هذا الفرح، وتوقفت عن أن تكون شاهدة صادقة له.

ومن بين كل الاتهامات التي تكال ضد المسيحيين، كان أفظعها ما نطق به الفيلسوف الألماني «نيتشه» حين قال إن المسيحيين ليس عندهم فرح.

دعنا إذن ننسَ ولو للحظة هذه المناقشات الفنية عن الكنيسة، وخدمتها ورسالتها، وطرقها. ليس لأن هذه المناقشات خاطئة أو غير ضرورية، لكن لأنها يمكن أن تكون مفيدة وذات معنى فقط داخل مضمون أساسي وجوهري، هذا المضمون هو «الفرح العظيم» الذي منه تطور كل شيء في المسيحية واكتسب معناه.

هكذا يبدأ الإنجيل، وهكذا ينتهي :

«ها أنا أبشركم بفرح عظيم»،

«فسجدوا له، ورجعوا إلى أورشليم بفرح عظيم» (لوقا ٢: ١٠ ، ٢٤: ٢٥).

ونحن علينا أن نستعيد معنى هذا الفرح العظيم. وعلينا إن أمكن أن نشترك فيه، قبل أن نناقش أي شيء، برامج كانت أم خدمات، مشاريع كانت أم تقنيات.

والفرح، رغم ذلك، ليس شيئاً يمكن للمرء أن يعرِّفه أو يحلِّله. فالإنسان إنما يدخل في عمقه.

«ادخل إلى فرح سيدك» (متى ٢٥: ٢١).

وليس لنا من سبيل آخر للدخول في هذا الفرح، ولا من طريق لفهمه، إلا من خلال هذا الفعل الوحيد، والذي منذ البدء قد صار للكنيسة مصدر الفرح وتحقيقه في آن واحد.

سر الفرح الحقيقي في الكنيسة،

الإفخارستيا.

سر الشكر (القربان الإلهي).

والإفخارستيا ليتورجيا ... عبادة كل الكنيسة.

ومن يقول «ليتورجيا» اليوم يدخل في جدل، لأنه عند البعض ـ من الذين يُصاغ فكرهم ليتورجياً ـ فإنه من بين كل أنشطة الكنيسة، الليتورجيا

(القداس) هو أهمها كلها، إن لم يكن هو السر الأوحد والأعظم. وبالنسبة لآخرين، فالليتورجيا هي إنحراف حِسي وروحي عن المهمة الحقيقية للكنيسة.

وتوجد، اليوم بيننا، كنائس «ليتورجية» وأخرى «غير ليتورجية».

وهناك مسيحيون «ليتورجيون» وآخرون «غير ليتورجيين».

ولكن هذا الجدل لا لزوم له، لأن جذوره متأصلة في سوء فهم أساسي - أعني المفهوم «الليتورجي» للقداس الإلهي - ويتمثل في إختزال القداس إلى فئويات «دينية» وصنوف من «العبادة» الشكلية، وتعريفه بأنه فعل عبادة مقدس مختلف هكذا، ليس فقط عن كل ما هو «دنس» في الحياة، بل حتى عن أية أنشطة أخرى في الكنيسة نفسها.

لكن ليس هذا هو المعنى الحقيقي للكلمة اليونانية : ليتورجيا، فهذه اللفظة تعني أساساً **فعل جماعي**، إذا ما مارسه حشد من الناس معاً يجعلهم متوحدين بشكل «مشترك»، وليس كمجرد مجموعة من علة أفراد لا تجمعهم أية رابطة. إذن الليتورجيا شركة جموع متحدين معاً برباط واحد مشترك، ويصبح المجموع المشترك هذا أعظم من «جمع» كل أفراده.

وتعني الليتورجيا أيضاً **وظيفة** أو «**خدمة**» أو «**رسالة**» إنسان أو مجموعة من البشر، نيابة عن أو لصالح المجتمع كله.

هكذا، فإن «الليتورجيا» الخاصة بإسرائيل القديم كانت عملاً مشتركاً Corporate لجماعة مختارة لتُعِدَ العالم لمجيء المسِّيا. وفي عمق هذا الفعل، فعل الاستعداد أصبحوا ما تمت دعوتهم إليه، إسرائيل الله، الأداة المختارة لقصده الإلهي.

هكذا، فإن الكنيسة ذاتها هي «ليتورجيا» ، خدمة، ودعوة أن تعمل في هذا العالم على غرار ما عمله المسيح، أن تشهد له ولملكوته.

والليتورجيا الإفخارستية (القداس الإلهي)، من ثم، لا ينبغي أن نفهمها أو نقترب من فهمها بمفاهيم «ليتورجية» أو «دينية» فقط.

وتماماً مثلما يمكن للمسيحية - ولابد أن يكون الأمر كذلك - أن تُعتبر هي بالفعل نهاية التدين أو الديانة، هكذا الليتورجيا المسيحية بوجه

عام، والإفخارستيا بوجه خاص، هي في الحقيقة نهاية التدين، ونهاية الفعل «المقدس» بحسب مفهوم العالم، والفعل الديني المنعزل عن حياة المجتمع «الدنسة» والمضاد لها ! والشرط الأول لفهم الليتورجيا أن ننسى أي شيء يتعلق «بالتقوى الليتورجية» بصفة خاصة.

والإفخارستيا سر كنسي. ولكن من يقول سر كنسي يدخل أيضاً في جدل. فإن كنا نتحدث عن سر كنسي ، فأين الكلمة (الله اللوجوس) ؟ ألسنا ننقاد إلى مخاطر «السرانية»[1] و «السحر» وإلى خيانة الخاصية الروحية لمسيحيتنا ؟

ولا نملك إجابات على هذه الأسئلة الآن هنا.

لأن الغاية كلها من هذه المقالة أن نوضح أن المضمون الذي تُطرح من خلاله تلك الأسئلة ليس هو المضمون الوحيد الممكن. وعند هذه المرحلة، نكتفي أن نقول هذا فقط :

الإفخارستيا هي دخول الكنيسة إلى فرح سيدها.

وما دعوة الكنيسة الأساسية والحقيقية إلا الدخول إلى هذا الفرح لتكون شاهدة عليه أمام العالم، بل يتمثل في هذا الدخول وهذه الشهادة «ليتورجيتها» الأساسية، السر الكنسي الذي بواسطته «تصبح ما هي عليه».

وفي الوصف المختصر للإفخارستيا، والذي يلي، سوف نشير بالأساس إلى الليتورجيا الإفخارستية الأرثوذكسية ، وهذا لسببين :

أولاً : في مجال الليتورجيا، يمكن للمرء أن يتحدث باقتناع وبقناعة مَن اختبر ما سوف يتحدث عنه. فهذه هي خبرة الكاتب التي اختبرها طويلاً في التقليد الأرثوذكسي.

ثانياً : فإن الرأي الذي أجمع عليه كل «الليتورجيين المختصين» أن الليتورجيا الأرثوذكسية، قد حفظت جيداً تلك العناصر والتوكيدات التي تشكل الفكر العام لهذا الكتاب (لأجل حياة العالم).

---

(١) السرانية الكنسية هي الإيمان بالطقوس أو الأعمال أو الأشياء الخاصة بالأسرار المقدسة أو اصطناعها، وبخاصة : الإيمان بأن الأسرار المقدسة ضرورية للخلاص .

-٣-

وليتورجيا الإفخارستيا (قداس سر الشكر)، يمكن فهمها على أحسن تقدير، كرحلة أو مسيرة ..

فهى رحلة الكنيسة إلى بُعد الملكوت. ونحن نستخدم هذه الكلمة «بُعد» لأنها تبدو أفضل طريقة للتعبير عن طريقة دخولنا السرائري إلى حياة المسيح المقامة.

وشفافيات اللون «تصبح حية وملموسة» حين نُظهرها في ثلاثة أبعاد بدلاً من بعدين. إن وجود هذا البعد الإضافي يسمح لنا أن نرى، بشكل أفضل بكثير ما تم تصويره، ونُشاهد واقعه الحي والمحسوس. وبنفس الطريقة ذاتها، رغم أن أي تشبيه محكوم عليه بالفشل فإن «دخولنا» إلى حضور المسيح هو دخول إلى البعد الرابع والذي يسمح لنا أن **نرى الواقعِ الأقصى للحياة**. فنرى الحياة بكامل وأدق تفاصيلها الحقيقية. وهذا ليس هروباً من العالم، بالحري هو بلوغ النقطة «الأفضل والأحسن» التي نستطيع من خلالها أن نرى وبأكثر عمق واقع هذا العالم وحقيقته.

وتبدأ الرحلة حين يترك المسيحيون أَسِّرَتهم (فراشهم) وبيوتهم، هم في الواقع يتركون حياتهم في هذا العالم الحاضر والملموس، وسواء كان عليهم أن يقودوا سياراتهم مسافة ١٥ ميلاً أو أن يسيروا مسافة عدة بلوكات منزلية قليلة، فإن فعلاً سرائرياً كنسياً قد بدأ يتحقق. فعل هو شرط كل شيء آخر على وشك أن يحدث. لأنهم الآن في طريقهم «لتأسيس الكنيسة»، أو حتى نكون أكثر دقة، في طريقهم أن يتحولوا إلى كنيسة الله.

هم في الأصل أفراد، بعضهم بيض البشرة، والبعض أسود، البعض غني، والآخر فقير، هم في الأصل «عالم طبيعي»، ومجتمع من الناس طبيعي.

والآن قد تمت دعوتهم «ليأتوا ويجتمعوا معاً في مكان واحد» أن يأتوا بحياتهمٍ، «بعالمهم» الخاص والحقيقي معهم، وأن يكونوا أكثر مما كانوا : مجتمعاً **«جديداً»**، بحياة جديدة.

ونحن بعيدون الآن عن أية تصنيفات لعبادة مشتركة وصلاة مشتركة. إن

الغاية من هذا «الاجتماع معاً» ليس ببساطة أن نضيف بُعداً دينياً للمجتمع الطبيعي، لنجعله «أحسن» أو «أفضل». وأكثر مسئولية، وأكثر مسيحيةً.

إن الغاية هي أن «**نحقق الكنيسة**»، وهذا يعني أن ننعم بحضور الواحد الذي فيه يكون كل شيء في «نهايته»، وكل شيء في «بدايته».

إذن تبدأ الليتورجيا، **كانفصال حقيقي عن العالم**.

وفي محاولتنا أن نجعل المسيحية تصل إلى قلب رجل الشارع قللنا غالباً، أو حتى نسينا بالكامل، هذا الإنفصال الضروري. ونحن دائماً نريد أن نجعل المسيحية «مفهومة» و«مقبولة» لهذا الإنسان الأسطوري «الحديث» في الشارع. وننسى أن المسيح الذي نتحدث عنه «ليس من هذا العالم» وأنه بعد قيامته لم يعرفه حتى تلاميذه الأخصاء. فقد ظنت مريم المجدلية أنه البستاني. وحين كان اثنان من تلاميذه ذاهبين إلى عمواس، «اقترب يسوع نفسه منهما وذهب معهما» ولم يعرفاه قبل أن «يأخذ الخبز ويباركه ، ويكسره لهما» (لوقا ٢٤: ١٥ ، ١٦ ، ٣٠).

وظهر للإثنى عشر، «والأبواب مغلَّقة» ولم يعد بعد كافياً هكذا ببساطة أن يُعرف بأنه كان ابن مريم.

لم تكن هناك وسيلة مادية للتعرف عليه.

بعبارة أخرى،

لم يعد بعد «جزءاً» من هذا العالم،

ولا من واقعه.

وأن نتعرف عليه،

أن ندخل في فرح حضوره وحضرته.

أن نكون معه،

يعني تحولاً إلى واقع آخر.

إن تمجد الرب ليس فيه نفس الدليل الملزم والمحسوس لإتضاعه وصليبه.

إن مجده مدرك فقط من خلال الموت السري معه في جرن المعمودية.

من خلال مسحة الروح القدس.

معروف فقط في ملء الكنيسة وهي تجتمع للقاء الرب وشركة حياته المقامة.

وقد أدرك المسيحيون الأوائل أنه لكي يصبحوا هيكل الروح القدس عليهم أن «يصعدوا إلى السماء» حيث «**صعد**» المسيح، وقد أدركوا أيضاً أن هذا الصعود هو **الشرط** الفعلي لخدمتهم في العالم ، ولخدمتهم للعالم.

لأنهم ـ هناك ـ في السماء،

قد انغمسوا في الحياة الجديدة للملكوت السماوي.

وبعد هذه «الليتورجيا ـ قداس الصعود» يعودون إلى العالم مرة أخرى، فتعكس وجوههم نور و «فرح وسلام» هذا الملكوت فيشهدون وبحق لهذا الملكوت المُفرح والمُغيِّر.

لا يعودون ومعهم برامج ولا نظريات،

ولكن حيثما ذهبوا ..

يبذرون بذار الملكوت ..

ويوقدون إيمانه ..

وتتجلى فيهم حياته ..

والمستحيلات تصير ممكنات.

كانوا شهوداً.

وحين يسألهم الناس، «من أين يسطع هذا النور ،. ومن أين تأتون بهذه القوة ؟»

يعرفون الإجابة،

ويعرفون كيف يقودون الناس.

وفي الكنيسة اليوم،

كثيراً ما نجد أننا نتقابل مع نفس العالم القديم،

ولا نتلاقى لا مع المسيح

ولا مع الملكوت ... ملكوته.

ولا ندرك أننا انتقلنا إلى هناك.

لأننا لم نترك أبداً أي مكان خلفنا ، بل أخذناه معنا.

وأن نترك ، وأن نأتي ... فهذه هي « البداية »

نقطة البدء في السر الكنسي،

شرط قوته وواقعه الذي يغيِّرنا ويحولنا.

ـ ٤ ـ

ويبدأ القداس الأرثوذكسي «الليتورجيا» بالذوكصولوجية المقدسة الورعة:

«مبارك ملكوت الآب والابن والروح القدس الآن وإلى الأبد وإلى أبد الآبدين» .

ومن البداية تستعلن وجهة السفر :

الرحلة إلى الملكوت.

حيث نحن منطلقون، ليس رمزياً، بل واقعياً وبالحق. وبلغة الكتاب المقدس التي هي لغة الكنيسة أن نبارك الملكوت، ليس ببساطة أن نكرز به وحسب بل أن نعلن أنه هدفنا الأوحد، غاية ونهاية كل أشواقنا، ورغباتنا وإهتماماتنا، وكل حياتنا، والقيمة العليا والأسمى لكل ما يوجد فينا وحولنا.

أن نبارك ..

معناه أن نقبل في محبة،

وأن نتحرك صوب ما نحب وما نقبل.

والكنيسة بهذا تكون إجتماعاً، وتجمع الذين استعلنت لهم الوجهة الأخيرة والنهائية لكل حياتنا، والذين قبلوا هذه الوجهة،

ويُعبِّرون عن هذا القبول بالرد الورع على الذوكصولوجية :

آمين.

وهي أهم الكلمات التي ننطق بها في عالمنا الحاضر لأنها تعبر عن اتفاق

كل الكنيسة على إتباع المسيح في صعوده إلى أبيه.

وأن نجعل هذا **الصعود** قَدْر الإنسان ومصيره.

إنها عطية المسيح لنا،

لأن فيه (فى المسيح) فقط نستطيع أن نقول «آمين» لله،

أو بالحري هو نفسه : آميننا لله Our Amen

والكنيسة هي الآمين للمسيح.

وعلى هذه الآمين يتقرر مصير الجنس البشري كله.

فهي تستعلن أن الحركة صوب الله قد بدأت.

ولكننا لا نزال في أول البدايات.

لقد تركنا «هذا العالم».

وقد جئنا واجتمعنا معاً ككنيسة.

وقد سمعنا إعلان وجهتنا النهائية.

نحن الكنيسة Ecclesia ؛

ردة الفعل والإستجابة لهذه الدعوة وهذا الترتيب.

ونحن نبدأ «بالصلوات والتوسلات المشتركة»،

بفعل فرح وتسبيح مشترك.

ومرة أخرى، فإن سمة الفرح للإجتماع الإفخارستي لابد أن يتم التأكيد عليها. لأنٍ التشديد على الصليب وحده هو من العصر الوسيط، بينما لا يعتبر خطأً، إلا أنه تشديد أحادي الجانب. يركز على جانب ويهمل آخر.

فالقداس (الليتورجيا) هو وقبل أي شيء ، التجمع المفرح للذين راحوا يلتقون بالرب القائم والدخول معه في خدر العريس (حِجاله).

وفرح الانتظار هذا، وتوقع الفرح هذا، اللذان نعبر عنهما بالترنيم والطقوس، والملابس الطقسية والبخور في الكنيسة، في هذا «الجمال» كله في القداس الإلهي، والتي كثيراً ما يرفضه كثيرون ويعتبرونه غير ضروري بل وخطية ...

صحيح أنه غير ضروري ، لأننا تجاوزنا مرحلة ما هو «ضروري الآن».
فالجمال ليس أبداً من الأشياء «الضرورية»، أو «الوظائفية» أو حتى «المفيدة والنافعة».

ونحن حين ننتظر زيارة شخص نحبه،
نفرش له أجمل مفرش على مائدتنا ونزينها بالشموع والأزهار،
ونحن لا نفعل كل ذلك بدافع الضرورة،
بل بدافع المحبة.
والكنيسة محبة، وتوقُّع وانتظار، وفرح.
ها السماء على الأرض. حسب تقليدنا الأرثوذكسي.
هي فرح الطفولة المستعادة،
هذا الفرح الحر، غير المشروط،
الفرح الذي لا يسعى إلى تحقيق المصالح،
هو وحده القادر على تغيير العالم.

ولكن في تقوانا كبالغين كبار، تلك التقوى الخطرة،
نسأل عن التعريفات
ونطلب التبريرات،
وكلها متجذرة في الخوف،
الخوف من الفساد، والانحراف،
و«التأثير الوثني» والخوف من أي شيء وكل شيء.
ولكن،
«من خاف ، لم يتكمَّل في المحبة» (١يو ٤: ١٨).
وطالما يظل المسيحيون «يحبون» ملكوت الله،
ولا يناقشونه وحسب.
فإنهم سوف « يعيدون تقديمه » للعالم Represent،

سوف «يمثلونه ويطرحونه» للعالم، في الفن وفي الجمال.
ويظهر الأب الكاهن خادم سر القداس، سر الفرح
مرتدياً أجمل الثياب،
لأنه متسربل بمجد الملكوت.
لأنه - حتى - وهو في هيئة إنسان ظهر الله في مجد .
ونحن في الإفخارستيا (سر الشكر)،
واقفون في حضور وحضرة المسيح،
- مثلما وقف موسى أمام الله -
يغطينا مجد الله.

والمسيح نفسه قد لبس ثوباً غير مخيط
لم يقسمه الجنود عند الصليب،
وهو ثوب لم يُشتر من السوق،
بل في الأغلب قام أحد بصنعه خصيصاً.
قامت أيدي محبة بتصميمه وصناعته.

نعم، إن جمال استعدادنا للإفخارستيا ليس له أي استعمال عملي.
ولكن «رومانو جارديني» قد تحدث بحكمة عن هذا الجمال غير النافع - الجمال الذي بلا فائدة.

ويقول عن القداس (الليتورجيا) :

«الإنسان، وبمعونة النعمة، يُعطي فرصة إعادة ترسيخ جوهره الأساسي، ليصبح وبالحق ذاك الذي حسب مصيره الإلهي لابد أن يكون ويتوق أن يكونه، طفل وابن الله. وفي القداس (ليتورجيا) هو يذهب «نحو الله، الذي يعطي فرحاً لشبابه...» لأن حياة الليتورجيا أعلى من تلك الحياة التي يوفرها له واقعه المعاش والذي يمنحه الفرصة أو شكل

التعبير، فهو يدبر له أشكالاً مناسبة وطرقاً ملائمة من هذا المجال لا توجد إلا في الفن. فهو يتحدث بالقياس وباللحن، هو يوظف الإيماءات الشكلية واللحنية والإيقاعية، هو متسربل بالألوان، والثياب الغريبة عن نمط الحياة اليومية العادية ... هو بأعلى مفهوم حياة طفل، كل شيء فيها في صور، ولحن، وأغنية أو ترنيمة.

هذه هي الحقيقة العجيبة التي توضحها الليتورجيا : فهي توقظ فينا الطفل والواقع في طفولة تفوق الطبيعة أمام الله[1]» .

ـ ٥ ـ

الفعل التالي في القداس (الليتورجيا) هو «**الدخول**» : أي مجيء خادم السر الأب الكاهن إلى المذبح.

وهو دخول مُنح كل الشروح الرمزية الممكنة،

لكنه ليس «رمزاً»

إنه الحركة الفعلية والحقيقية للكنيسة «**كمرور أو عبور**» من القديم إلى الجديد .

من «هذا العالم» إلى «العالم الآتي».

هكذا فهو الحركة الأساسية بل والجوهرية «للرحلة» الليتورجية، رحلة القداس الإلهي بنا وفينا .

ففي «هذا العالم» ليس هناك مذبح ولا هيكل، فقد نُقض الهيكل وزال.

لأن المذبح الوحيد والحق هو المسيح نفسه .

ناسوته، بشريته التي أخذها **وألّهها**[2] وجعلها هيكل الله، ومذبح حضور الله.

---

(١) رومانوجارديني : « الكنيسة والكاثوليكية وروح الليتورجيا » ـ نيويورك ١٩٥٠ .

(٢) وجعلها واحداً مع لاهوته

وصعد المسيح إلى السماء،

هكذا، فإن المذبح رمز وعلامة أننا في المسيح قد صار لنا دخول واقتراب من السماء، وأن الكنيسة هي «**المرور**» إلى السماء، «**الدخول**» إلى المقدس والمذبح السماوي، وأنه فقط « بالدخول » بالصعود إلى السماء

تحقق الكنيسة ذاتها،

وتصبح ما هي عليه.

هكذا فإن «**الدخول**» في الإفخارستيا،

وهذا الاقتراب، الذي يتممه كاهن السر وفيه كل الكنيسة **معاً**، إلى المذبح **ليس رمزاً.**

إنه الفعل الجوهري والحتمي والحقيقي الذي فيه **تُستعلن الأبعاد الحقيقية** للسر الكنسي ـ سر الشكر.

والذي فيه يتأسس السر الكنسي، سر القداس.

إنه ليس « نعمة » تهبط علينا من فوق،

بل الكنيسة هي التي تدخل في « **النعمة** »،

والنعمة هنا تعني الكيان الجديد،

الملكوت ، العالم والدهر الآتي.

وحين يقترب كاهن السر من المذبح،

ترنم الكنيسة (نحن) ترنيمة يرنمها

الملائكة أبدياً عند عرش الله :

«قدوس الله . .

قدوس القوي . .

قدوس الحي الذي لا يموت» .

ويقول الأب الكاهن :

«قدوس الله

المُسَبح بصوت السيرافيم الثلاثي التقديسات
والممجد من الشاروبيم والمسجود له من جميع
أجناد السماء ».

فالملائكة ليسوا هنا للزينة والزخرفة والإلهام،
هم يقفون لأنهم في السماء حقاً.
بسبب ذلك المجد والغير المدرك الذي لا نعرف عنه شيئاً ولا نتجاوز إدراكه، بل نعرف فقط أمراً واحداً : أنه منذ الأبد ينسجم صوتاً وأداءاً مع تسبحة المجد الإلهي و «قداسة» الله.

« قدوس » هو الاسم الحقيقي لله،
اسم الله لا من تسميات « الأكاديميين والفلاسفة »،
بل من الله الحي، إله الإيمان.

والمعرفة «عن» الله تنتج تعريفات وتمييزات (About God)،
لكن معرفة الله أي معرفتنا لله (of God)،
تقودنا إلى تلك الكلمة الوحيدة ، غير المدركة ،
ومع ذلك فهى الجلية الواضحة والتي لا هروب منها ولا مفر
كلمة : قدوس.

وبهذه الكلمة وفيها نُعبِّر كلنا ككنيسة
أن الله هو الآخر بالمطلق،
الواحد الذي لا نعرف عنه شيئاً بمداركنا،
وأنه هو غاية كل جوعنا،
وكل اشتياقاتنا،
هو الواحد الذي لا يمكن الوصول إليه والاقتراب منه،
والذي يحرِّك كل مشيئاتنا،

الكنز السري الغامض الذي يجذبنا،
ولا نعرف شيئاً حتى الآن بالفعل إلا هو.

« قدوس » ..

هي الكلمة، الترنيمة،
«ردة الفعل» و «التفاعل» في كل الكنيسة،
حين تدخل إلى السماء،
وهي تقف أمام مجد الله السماوي.

ـ ٦ ـ

الآن ، ولأول مرة
والرحلة الإفخارستية تبدأ، أو بدأت.
يلتفت الأب الكاهن خادم السر في مواجهة الشعب.
وحتى هذه اللحظة فهو الشخص الذي قاد الكنيسة في صعودها.
ولكن الحركة الآن قد بلغت هدفها.
والكاهن ـ الذي قُداسه (ليتورجيتهُ)، ووظيفته الفريدة،
وطاعته في الكنيسة، هي أن يعيد تقديم أو يمثل (Re present)،
وأن يجعل كهنوت المسيح نفسه حاضراً ـ يقول للشعب :

« السلام لجميعكم »

وفي المسيح يعود الإنسان إلى الله،
وفي المسيح يأتي الله إلى الإنسان.
ولأنه آدم الجديد ، آدم الثاني.
ولأنه الإنسان الكامل وحده،
فهو يقودنا إلى الله،

وكالله المتجسد، يعلن لنا الآب،

ويصالحنا مع الله.

هو « **سلامنا** ».

هو مصالحتنا مع الله.

هو غفران الله لنا.

هو شركة الله معنا وشركتنا نحن مع الله،

هو سر الشركة.

والسلام الذي يعلنه الأب الكاهن، ويجعله لنا،

هو سلام المسيح الذي أسسه حقاً بين الله وعالمه،

والذي دخلنا نحن الكنيسة فيه.

وفي إطار ومضمون هذا السلام

«الذي يفوق كل عقل وكل فهم».

تبدأ الآن رحلة الله الكلمة.

وقد اعتاد المسيحيون في الغرب على التمييز بين الكلمة والسر الكنسي، حتى أنه يصعب عليهم أن يفهموا أنه وفي المنظور الأرثوذكسي فإن ليتورجيا الكلمة هي سرائرية مثلما أن السر الكنسي « إنجيلي ».

والسر الكنسي هو استعلان للكلمة، وبدون إزالة هذه الثنائية الزائفة بين الكلمة والسر الكنسي فإن المعنى الحقيقي لكل من الكلمة والسر، وخاصة المعنى الحقيقي «للسرانية» المسيحية، لا يمكن إدراكه في كل مضامينها العجيبة.

إن استعلان الكلمة هو فعل سرائري كنسي بلا منازع، لأنه فعل تجديد وتغيير. إنه يحول الكلمات البشرية في الإنجيل إلى كلمة الله واستعلان الملكوت.

وهي تحوّل الإنسان الذي يسمع الكلمة إلى وعاء للكلمة وهيكل للروح ...

وكل ليلة أو عشية سبت، وفي عشية القيامة المهيبة المقدسة، يؤتى بكتاب الإنجيل في دورة مهيبة ورعة إلى وسط الجمع، وفي هذا الفعل يعلن يوم الرب

ويستعلن. لأن الإنجيل ليس « سجلاً » لقيامة المسيح، وإنما كلمة الله هي المجيء الأبدي إلينا مجيء الرب المقام ، القوة الحقيقية والفعلية والفرح الحقيقي والفعلي للقيامة.

وفي القداس «الليتورجيا» فإن الكرازة بالإنجيل تسبقه «الهلليلويا» ترنيمة «حاملي الله ـ الثيؤفوروس» السرية ، الكلمة السلامية المفرحة للذين «يرون» مجيء الرب. الذين «يعرفون» حضوره، والذين يعبّرون عن فرحهم في هذا «الحضور» ـ الباروسيا ـ المجيد ، «ها هوذا ـ ها هنا !» ربما كانت تلك ترجمة دقيقة تقريباً لتلك الكلمة «هلليلويا» التي لا تُترجم .

لهذا، تكون قراءة الإنجيل والكرازة به في الكنيسة الأرثوذكسية «فعلاً ليتورجياً» جزءاً متكاملاً وأساسياً للسر الكنسي. نسمعها ككلمة الله ونستقبلها في الروح، أي في الكنيسة، التي هي حياة الكلمة و «نموها» في العالم.

ـ ٧ ـ

الخبز والخمر

لكي نفهم معناهما المبدأي والأبدي في الإفخارستيا علينا أن ننسى برهة تلك الجادلات التي بلا نهاية والتي حولتهما شيئاً فشيئاً إلى «عناصر» تخضع تقريباً للمناظرة اللاهوتية الجامدة والمجردة.

ومن أكثر نقائص وعيوب كتابات اللاهوت السرائري حقاً ـ والذي بدلاً من تتبُع نظام وترتيب وتدبير الرحلة الإفخارستية باستعلانتها المتقدمة المتنامية في المعنى، فقد طبق اللاهوتيون على الإفخارستيا مجموعة من الأسئلة المجردة الجامدة ليعتصروها ويختزلوها إلى إطارهم الفكري العقلاني الخاص بهم وحدهم.

وفي هذه المداخلة فإن ما اختفى من دائرة الاهتمام اللاهوتي وفحصها كان القداس نفسه، وما بقي منه كان « لحظات » منعزلة و «صياغات» و«شروط

صلاحية»، وما اختفى من دائرة الاهتمام كانت الإفخارستيا ذاتها (القداس) كفعل واحد عضوي ، شامل جامع مانع ، وفعل تحويل وتغيير للكنيسة كلها، وما بقى كانت أجزاء «ضرورية» وأخرى «غير ضرورية» و «تقديس أو تكريس» الخ.

فعلى سبيل المثال، لكي نشرح ونعرِّف معنى الإفخارستيا بالطريقة التي يفعلها لاهوت معين ، فلا حاجة بنا إلى كلمة «إفخارستيا» فهي كلمة صارت عند هذا العلم اللاهوتي لا لزوم لها ـ فهي لا علاقة لها بالبحث (!)

أما الآبـاء فقد أطلقـوا «الإفخارستيا» على خبز وخمر التقدمة (أو القربان) وهي صعيدتهم وتكريسهم وأخيراً هي شركتهم. كل هذا كان «الإفخارستيا» وكل ذلك لا يمكن فهمه إلا داخل الإفخارستيا فقط.

وعندما نتقدم أكثر فأكثر، في القداس، (أي في الليتورجيا الإفخارستية)، يحين الوقت لنقدم لله كل حياتنا بمجملها وكليتها، كل ذواتنا، كل العالم الذي نعيش فيه.

هذا هو المعنى الأول لإحضارنا عناصر طعامنا إلى المذبح، لأننا نعرف أصلاً أن الطعام حياة، أنه المبدأ الحقيقي والأساسي للحياة وأن العالم كله قد خُلق كطعام للإنسان. ونحن نعرف أيضاً، أننا لكي نقدِّم هذا الطعام وهذا العالم وهذه الحياة لله، فنحن نمارس أول وأهم عمل «إفخارستي» للإنسان، ممارسة **الشكر** لله، التي تحقق إنسانية الإنسان كإنسان.

ونحن نعرف أننا مخلوقون «كخدام» سر الحياة، وتحويل هذه الحياة إلى **حياة في الله، شركة مع الله.**

ونحن نعرف أيضاً أن الحياة الحقيقية هي إفخارستيا ... سر شكر، حركة محبة وعبادة نحو الله، الحركة التي بها وحدها فقط يمكن استعلان معنى وقيمة كل الموجودات بل ويتحقق هذا المعنى وهذا الوجود.

ونحن نعـرف أننا قد فقـدنا هذه الحـياة الإفخارسـتية.

وأخـيراً نعـرف أنه في المسيح، آدم الجـديد، **الإنسان الكامل**، قد استعاد الإنسان حياته الإفخارستية.

لأن المسيح نفسه هو الإفخارستيا الكاملة، فقد قدم نفسه في طاعة كاملة

ومحبة كاملة وشكر كامل لله، كان الله هو حياته الحقيقية فعلا. وقد أعطى هذه الحياة الكاملة والإفخارستية لنا وفيه أصبح الله حياتنا.

هكذا فإن هذه التقدمة لله، من خبز وخمر من الطعام الذي يجب أن نأكله لنحيا، هي تقدمتنا له، تقدمة ذواتنا ، حياتنا، وكل العالم.

يقول شاعر روسي :

«نأخذ بين أيدينا العالم كله وكأنه تفاحة». ان العالم هو إفخارستيتنا

إنها الحركة التي فشل آدم أن يحققها، ولكن في المسيح قد صارت الحياة الحقيقية للإنسان :

حركة عبادة وتسبيح وسجود فيها :

كل الفرح وكل الألم،

كل الجمال، وكل الإحباط،

كل الجوع، وكل الشبع،

صوب غايته القصوى، ليصبح أخيراً «ذا معنى»

ولا يزال الفعل «ذبيحة» :

والذبيحة هي الفعل الطبيعي والحقيقي للإنسان

هي جوهر حياته.

فالإنسان كائن ذبائحي :

لأنه يجد حياته في الحب

والحب ذبائحي :

فهو يضع قيمة الحياة وعمق معناها الحقيقي

في الآخر،

ويعطيها (الحياة) للآخر

وفي هذا العطاء

في هذه الذبيحة

يجد معنى وفرح الحياة.

نحن نقدم العالم وأنفسنا لله.
لكننا نفعل ذلك «في المسيح»
و «تذكاراً له».
نحن نفعله في المسيح.
لأنه قد أتم مرة وإلى الأبد
كل هذه الإفخارستيا ـ سر الشكر لله
ولم يترك شيئاً لم يقدمه.
فقد قدم كل شيء.
فيه كانت «الحياة»
وهذه الحياة، حياتنا كلنا معاً
قد أعطاها هو لله.

والكنيسة هي كل أولئك
الذين قبلهم الله في حياة المسيح الإفخارستية.
ونحن نفعل ذلك «تذكاراً للمسيح» :
لأننا ونحن نقدم حياتنا وعالمنا لله ،
المرة تلو المرة،
نكتشف كل مرة أن لا شيء آخر نقدمه،
سوى المسيح حياة العالم،
وملء كل الموجودات.
إنها إفخارستيته هو
وهو الإفخارستيا.
هو سر الشكر،

إنسان الشكر،
مثلما تقول صلاة القربان

« هو الذي يقدِم
وهو الذي يُقدَم ».

وقد قادتنا الليتورجيا (القداس)
إلى إفخارستيا المسيح التي تحتضن الكل،
وقد كشفت لنا أن الإفخارستيا الوحيدة،
والقربان الوحيد للعالم هو المسيح.
نحن نأتي المرة تلو المرة بحياتنا لنقدمها.
نحن نأتي بها ونقدمها «ذبيحة».
أي **نعطيها** لله ـ نعطيه ما كان هو قد أعطانا.

وفي كل مرة نأتي إلى «**غاية**» كل الذبائح، غاية كل التقدمات، **غاية الإفخارستيا** كلها، لأنه في كل مرة يُستعلن لنا أن المسيح قد «**قدَّم**» كل ما يوجد، وأنه هو وكل ما يوجد قد تم تقديمه في تقدمته هو لذاته. ونحن مشمولون متضمنون في إفخارستيا المسيح والمسيح هو إفخارستيتنا.

وإذ تتقدم الدورة، فهي تحمل الخبز والخمر إلى المذبح، ونحن نعرف أن المسيح نفسه هو الذي يأخذنا كلنا وكل حياتنا بأكملها لله في صعوده الإفخارستي. ولهذا، وفي هذه اللحظة من الليتورجيا نتذكر :

« ليذكرني الرب الإله في ملكوته . . . »

والذكرى «**فعل محبة**»
الله يذكرنا . وتذكره لنا ومحبته هي أساس العالم.
في المسيح «نتذكر».
ونصبح من جديد كائنات منفتحة على الحب،

و «نتذكر».

والكنيسة في إنفصالها عن العالم،

تتذكر كل الناس،

تتذكر كل الخليقة،

تأخذها في حب إلى الله.

والإفخارستيا هي سر الذكرى الكونية :

إنها بالحقيقة إستعادة الحب كأصل حياة العالم.

ـ ٨ ـ

الخبز والخمر الآن على المذبح، مغطى، مستتر مثلما أن حياتنا : «مستترة مع المسيح في الله» (كو ٣ : ٣). وهناك يمكث، مستتراً في الله، **كل كمال الحياة**، والتي استعادها المسيح لله. ويقول الأب الكاهن خادم السر :

« فليحب بعضنا البعض حتى نعترف بقلب واحد ... »

ثم يلي ذلك قُبلة السلام ، أحد أهم أعمال الليتورجيا المسيحية.

والكنيسة ، لتكون كنيسة لابد أن تكون إستعلان ذلك الحب الإلهي الذي «سكبه الله في قلوبنا».

بدون هذا الحب لا شيء «يصلح» في الكنيسة، لا شيء شرعي وقانوني ... لأن لا شيء بدون المحبة يصبح ممكناً.

والمحبة هي محتوى وجوهر إفخارستيا المسيح. وبالمحبة وحدها يمكننا أن ندخل فيها ونصبح شركاءها.

ونحن علجزون عن إدراك هذه المحبة.

فهذه المحبة قد فقدناها.

هذه المحبة قد أعطاها المسيح لنا،

وهذه العطية هي « **الكنيسة** ».

والكنيسة تؤسس نفسها بالحب،
وعلى الحب،
وفي هذا العالم « تشهد » هي للمحبة (**التي هي الله**).
وتعيد تقديمها ـ (Re present)،
لتجعل المحبة حاضرة (أو حاضراً كالله)
والمحبة وحدها تخلق وتحوّل ؛
لهذا فهي المبدأ الحقيقي والفعلي للسر الكنسي.

ـ ٩ ـ

يقول الأب الكاهن خادم السر :

« ارفعوا قلوبكم »

ويرد الشعب :

« هي عند الرب »، أو « لقد رفعناها عند الرب ».

والإفخارستيا هي «الصعيدة» ـ الأنافورا .
هي «رفع ـ وإصعاد» قرباننا وتقدماتنا، وأنفسنا،
هي صعود الكنيسة إلى السماء .

يقول القديس يوحنا ذهبي الفم :
«ولماذا أنشغل بالسماء .. وقد صرت أنا نفسي **(بالإفخارستيا)** سماءاً ...؟»
وكثيراً ما شرح اللاهوتيون الإفخارستيا بالإشارة **إلى العطايا وحدها** ؛
ما الذي «يحدث» للخبز والخمر ... ؟
ولماذا ... ؟
ومتى يحدث ذلك ؟!

ولكن علينا أن نفهم أن «ما يحدث» للخبز والخمر يحدث منه الآن شيئ ما لنا نحن، للكنيسة.

ولأننا قد «حققنا» الكنيسة، وهذا يعني أننا قد تبعنا المسيح في صعوده، لأنه قد قبلنا عند مائدته في ملكوته، لأنه، وبمفهوم اللاهوت، قد دخلنا نحن الاسخاتون (الآخر والأخير)، ونقوم الآن فيما وراء الزمان والمكان، ولأن كل هذا قد حدث لنا، فإن شيئاً ما سوف يحدث للخبز والخمر.

يقول الأب خادم الحفل الإفخارستي :

« ارفعوا قلوبكم »

ويجيب الجمع الحاضر :

« هي عند الرب » أو « ها قد رفعناها عند الرب »

ويقول الكاهن:

« فلنشكر الرب » (إفخاريستيسومين) .

ـ ١٠ ـ

وحين يقف الإنسان أمام عرش الله ، وحين يكون قد أكمّل كل ما قد أعطاه له الله، وحين تُغفر له كل الخطايا ، ويُسترد كلُ الفرح . فلا شيء آخر يفعله سوى أن «يعطي شكراً».

والإفخارستيا (الشكر) هي حالة الإنسان الكامل.

الإفخارستيا هي حياة الفردوس.

الإفخارستيا هي الاستجابة الوحيدة الكاملة،

والحقيقية للإنسان من نحو خلقة الله،

والفداء وعطية السماء.

ولكن هذا الإنسان الكامل الذي يقف أمام الله هو «المسيح».

وفيه وحده، فإن كل ما أعطاه الله للإنسان قد تحقق وأحضره الله إلى السماء.

هو وحده الكائن الإفخارستي الكامل.

هو إفخارستيا (شكر) العالم.

وفي هذه الإفخارستيا وبها تصبح كل الخليقة ما كانته دائماً ولكنها فشلت أن تحققه.

ويرد الجمع :

« يليق حقاً أن نشكر ».

معبراً بهذه الكلمات عن هذا «التسليم غير المشروط» الذي به تبدأ «الديانة» الحقيقية.

لأن الإيمان ليس ثمرة البحث الفكري ، أو ثمرة باسكال[1] «مراهنة Betting»، إنه ليس حلاً عقلانياً لإحباطات ومتاعب الحياة ، ولا ينشأ بسبب «نقص» شيء ما، بل بالنهاية الإيمان ينشأ عن الملء والمحبة والفرح.

« إنه بالحق والاستقامة »، «مستحق ومستوجب» يعبِّر عن كل هذا.

إنه الاستجابة الممكنة الوحيدة للدعوة الإلهية لأن نحيا وأن نقبل الحياة الوفيرة[2].

هكذا يبدأ الأب الكاهن الصلاة الإفخارستية الكبيرة[3] :

إنه بالحق والاستقامة ينبغي أن نرنم لك ، وأن نباركك ونسبحك ونشكرك ونسجد لك في كل أماكن ربوبيتك . لأنك أنت الله الغير المدرك والغير المحسوس والغير المرئي . والغير المحوي . أنت الذي من البدء ولا تتغير . كونتنا من العدم (إذ لم نكن) وعندما سقطنا عنك ، أقمتنا ثانية ولم تكف عن أن تفعل كل شيء حتى أصعدتنا إلى السماء وأعطيتنا ملكوتك الآتي . . .

(١) قال باسكال الفيلسوف والعلم الإنجليزي الشهير : «الإيمان هو قفزة في المجهول»
(٢) قابل يو ١٠: ١٠ ـ المعرب
(٣) الأنافورا

نشكرك لأجل كل هذا، لأجل كل ما نعرفه وما لا نعرفه، لكل منفعة أسبغتها علينا علناً وسراً ...

وهذه البداية للصلاة الإفخارستية دائماً ما تسمى «التقديم». ورغم أن هذا التقديم يخص كل الطقوس الإفخارستية المعروفة، فإن أحداً لم يعطه الاهتمام الكافي في أبحاث علم اللاهوت الإفخارستي.

إن «التقديم» شيءٌ لا ينتمي حقاً لمتن كتاب ما. وقد أهمله اللاهوتيون لأنهم كانوا متلهفين قلقين على الوصول إلى لب «المشاكل» الحقيقية. تلك التي تتعلق بالتكريس والتقديس، وتحول العناصر، والذبيحة، ومواضيع أخرى.

وهنا، نجد «العيب» الرئيسي في كتابات اللاهوت المسيحي، إذ كفَّ لاهوت الإفخارستيا عن أن يكون **إفخارستياً**، وهكذا إنتزع الروح الإفخارستية من كل فهم ومفهوم السر الكنسي، من عمق حياة الكنيسة.

وكان الجدل الطويل حول كلمات التأسيس واستدعاء الروح القدس (الإبيكلسيس) والذي دام علة قرون بين الشرق والغرب، هو مثال جيد جداً لهذه المرحلة « غير الإفخارستية » في تاريخ اللاهوت السرائري.

ولكن علينا أن نفهم أن هذا «التقديم» بصفة خاصة وبالضبط ـ هذا الفعل ـ وهذه الكلمات، وهذه الحركة، حركة الشكر هي في الحقيقة، التي تجعل كل ما يليها « ممكناً ». لأنه بدون هذه البداية لا يمكن للباقي أن يحدث.

والإفخارستيا (سر شكر المسيح ـ والمسيح الإفخارستيا سر الشكر ـ نفسه) هو «الاختراق» الذي يأتي بنا إلى مائدة الملكوت، يرفعنا إلى السماء، يجعلنا شركاء الطعام الإلهي. لأن الإفخارستيا ـ الشكر والتسبيح ـ هي الشكل الحقيقي والمحتوى الأصيل للحياة الجديدة، التي منحها الله لنا حين صالحنا في المسيح مع نفسه.

والمصالحة، والغفران، وقوة الحياة، كل هذا له غايته وقصده، وكمال تحقيقه في هذه الحالة الجديدة من الوجود (Being)، هذا النمط الجديد للحياة الذي هو الإفخارستيا. الحياة الحقيقية الوحيدة للخليقة مع الله وفي الله، العلاقة الوحيدة الحقيقية بين الله والعالم.

إنها في الحقيقة «المقدمة» أو «التقديم» للعالم ليأتي، الباب إلى الملكوت:

وهذا ما نعترف به ونعلنه. حين نتحدث عن الملكوت «الآتي» فنؤكد أن الله قد منحه بالفعل لنا. وهذا المستقبل قد أعطى لنا في الماضي ليؤسس هذا الحاضر فعلاً، الحياة نفسها، الآن، حياة الكنيسة.

- ١١ -

هكذا يحقق التقديم (ذاته) في قدس الأقداس في التقديسات الثلاث: « قدوس، قدوس ، قدوس » الذي للتسبحة الأبدية (الذكصولوجيا). التي هي الجوهر السري لكل ما يوجد :

« السماء والأرض مملوءتان من مجدك » .

وعلينا أن نصعد إلى السماء في المسيح لنرى ونفهم الخليقة في وجودها الحقيقي كتمجيد لله، «**كاستجابة**» للمحبة الإلهية التي فيها وحدها تصبح الخليقة ما يريدها الله أن تكون :

إفخارستيا شكر ، وعبادة .

إنه هنا ، **في هذا البعد السماوي للكنيسة** ، ومع «ربوات رؤساء الملائكة وربوات ربوات الملائكة، مع الشاروبيم والسيرافيم ... الذين يحلّقون عالياً، بأجنحتهم ...» حتى يمكن لنا في النهاية أن «نعبر عن أنفسنا» وهذا التعبير هو :

قدوس ، قدوس ، قدوس .

رب الصاباؤوت .

السماء والأرض مملوءتان من مجدك

هوشعنا في الأعالي .

مبارك الآتي باسم الرب .

هذه هي الغاية القصوى لكل ما يوجد، «النهاية» والهدف والتحقيق، لأن هذه هي «البداية» ومبدأ **الخليقة** .

ـ ١٢ ـ

ولكن حين نقف أمام الله، متذكرين كل ما فعله من أجلنا، ونقدم له شكرنا لكل صلاحه وإحساناته، نكتشف لا محالة أن **محتوى** كل هذا الشكر والذكرى هو **المسيح**.

فكل الذكرى أو التذكار هو في النهاية تذكار للمسيح، وكل شكر هو في النهاية شكر للمسيح.

«فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس» وعلى ضوء الإفخارستيا وفي نورها « **نرى** » أن المسيح هنا هو حقاً حياة ونور كل الموجودات، والمجد الذي يملأ السماء والأرض. فلا شيء آخر نتذكره ، لا شيء آخر نكون له شاكرين، لأن فيه، كل شيء يجد وجوده وكيانه وحياته وغايته.

والقدوسات، أو التقديسات الثلاث إذن تُحضِرنا هكذا ببساطة، بشكل منطقي جداً لهذا الإنسان الواحد، الليلة الواحدة، الموت الواحد، الذي يجد فيه العالم مرة وإلى الأبد قضاءه ودينونته **وخلاصه**.

وليس لأننا قد أنشدنا التقديسات الثلاث، Sanctus واعترفنا بسيادة وسمو المجد الإلهي، نترك ذلك جانباً وندخل في القسم التالي من الصلاة التذكار (الذكرى)، كلا ، فإن التذكار هو ملء ذوكصولوجيتنا (تمجيدنا).

إنه مرة أخرى، الإفخارستيا التي تقودنا «بشكل طبيعي» إلى عمق قلب ومضمون كل الذكرى والشكر.

قدوس وكُلّي القداسة أنت في سموك المجيد
يا من أحببتَ العالم هكذا
حتى بذلتَ ابنك الوحيد الجنس

حتى أن كل من يؤمن به لا يهلك بل تكون له الحياة الأبدية

والذي، حين جاء

وأتم كل التدبير لأجلنا

وفي الليلة التي أُسلم فيها، أو بالحري

التي أسلم فيها ذاته،

«لأجل حياة العالم»

أخذ خبزاً على يديه الطاهرتين النقيتين

اللتين بلا خطية

وحين شكر وباركه وقدَّسه

أعطاه لتلاميذه القديسين، قائلاً:

«خذوا، كلوا، هذا هو جسدي

الذي يقسم عنكم،

لمغفرة الخطايا

وكذلك، وبعد العشاء،

أخذ الكأس، قائلاً:

اشربوا منه كلكم،

هذا هو دمي الذي للعهد الجديد،

الذي يُسفك عنكم (لأجلكم : For You)

وعن كثيرين.

لمغفرة الخطايا.

وحين نقف أمام الله، لا شيء آخر يمكن لنا أن نتذكره وأن نحضره معنا ونقدمه لله إلا هذه التقدمة الذاتية للمسيح (**تقدمة المسيح نفسه**)، لأن فيها يتحقق كل الشكر، وكل التذكار، وكل التقدمة ـ أي ـ كل حياة الإنسان بكاملها، وكل حياة العالم. وهكذا :

«إذ نتـذكر وصية الخلاص هذه وكل الأمور التي تمت لأجلنا، الصليب، القبر، القيامة في اليوم الثالث، الصعود إلى السماء، والجلوس عن يمين (الآب).

والمجيء الثاني المملؤ مجداً .

فإنه مما لك نقدم لك كل شئ ولأجل كل شئ ...»

(نيابة عن الجميع ولأجل الجميع ...)

ـ ١٣ ـ

حتى هذه النقطة ، كانت الإفخارستيا هي صعودنا في المسيح، ودخولنا فيه إلى «العالم الآتي».

والآن، وفي هذه التقدمة الإفخارستية في المسيح، تقدمة كل شيء «للواحد» الذي ينتمي إليه كل شئ، والذي فيه وحده توجد كلها حقاً، هذه الحركة للصعود قد بلغت الآن «**نهايتها**».

ونحن عند المائدة الفصحية للملكوت. وما قدّمناه : طعامنا، حياتنا، نفوسنا، وكل العالم. فقد قدّمناه في المسيح وبصفتنا المسيح (as Christ) لأنه هو نفسه قد أخذ حياتنا وهو حياتنا. والآن يُعاد كل هذا إلينا كعطية الحياة الجديدة. وبالضرورة يعاد إلينا : **كطعام**.

« هذا هو جسدي ، هذا هو دمي .

خذوا ، كلوا ، اشربوا . . .»

وأجيال وراء أجيال من اللاهوتيين طرحوا ذات السؤال ونفس الأسئلة : كيف يمكن هذا؟

كيف يحدث هذا؟

وما الذي يحدث بالضبط في هذا التغيُّر؟

ومتى بالتمام؟

وما هو السبب؟

وما من إجابة بدت مقنعة،

رمز ... ؟

ولكن ما هو الرمز؟

مادة ، عوارض؟

ومع ذلك، يشعر المرء فوراً أن ثمة شيئاً ناقصاً في تلك النظريات كلها. حيث يُختزل السر الكنسي إلى فئات، الزمان، والمادة، والسببية، وهي نفس فئات «هذا العالم».

ثمة شيء ناقص، لأن اللاهوتي يفكّر في السر الكنسي وينسى الليتورجيا (العبادة الشعبية). وكعالِم جيد، فهو يعزل أولاً مادة دراسته، ويختزلها إلى لحظة واحدة، إلى ظاهرة واحدة.

ثم ، إذ يتقـدم من العام إلى الخاص، ومن المعلوم إلى المجهول، يطرح تعريفاً، يثير في الحقيقة من الأسئلة أكثر مما يجيب من أجوبة.

ولكن وفي كل دراستنا، فإن النقطة الأساسية كانت أن الليتورجيا بأكملها هي سرائرية ... أي فعل تغيير واحد، وحركة صعود واحدة.

والهدف الأساسي لهذه الحركة ـ حركة الصعود هو أن تأخذنا خارج «هذا العالم» وأن تجعلنا شركاء «العالم الآتي».

وفي «هذا العالم» ـ العالم الذي أدان المسيح وبفعله هذا قد أدان نفسه ـ فإن لا خبز ولا خمر يمكنه أن يصبح جسد ودم المسيح.

لا شيء مما هو « جزء » من هذا العالم يمكنه أن يصبح «مقدساً» (Sacralized) ولكن ليتورجيا الكنيسة هي دائماً صعيدة (أنافورا)، إصعاد لأعلى ـ صعود.

والكنيسة تحقق ذاتها في السماء في ذلك «**الدهر الجديد**» (New Eon) الذي قوّاه وعززه المسيح في موته وقيامته (صعوده) والذي أعطى للكنيسة في يوم الخمسين (البنديقوسط) كحياتها، و«كالغاية» التي تتحرك هي صوبها.

وفي هذا العالم يُصلب المسيح، وينكسر جسده ويُسفك دمه. وعلينا أن نخرج من هذا العالم، علينا أن نصعد إلى السماء في المسيح لنصبح شركاء العالم الآتي.

ولكن ليس هذا عالماً «آخر» مختلفاً عن الذي خلقه الله وأعطاه لنا. إنه نفس عالمنا ، وقد اكتمل بالفعل في المسيح لكنه «لم يكتمل بعد» فينا.

إنه نفسُ عالمنا المفدي والمُستعاد ، الذي فيه «يملأ المسيحُ كل شيء بنفسه».

ولما كان الله قد خلق العالم كطعام لأجلنا وقد أعطاه لنا طعاماً كوسيلة شركة معه، والحياة معه، والطعام الجديد للحياة الجديدة التي نقبلها من الله في ملكوته «**هو المسيحُ نفسه**».

هو خبزنا، لأنه منذ البدء ـ كان كل جوعنا هو جوع إليه وكل خبزنا لم يكن إلا رمزاً له، رمز كان لابد أن يصير حقيقة.

وهو قد صار إنساناً وعاش في هذا العالم.

أكل وشرب،

وهذا يعني أن العالم الذي اشترك فيه،

ذات الطعام الذي لعالمنا قد صار جسده.

قد صار حياته.

ولكن حياته كانت بالكامل وعلى الإطلاق

«**إفخارستية**»،

تحول كل ما فيها إلى شركة مع الله،

وكل ما فيها قد صعد إلى السماء،

والآن هو يشارك هذه الحياة الممجدة : معنا.

« ما قد فعلته وحدي . أعطيه الآن لكم :

خذوا كلوا ...»

ونحن قد قدمنا الخبز تذكاراً للمسيح لأننا نعرف أن المسيح هو الحياة، ولهذا فكل الطعام لابد أن يقودنا إليه.

والآن وحين نقبل هذا الخبز من يديه، نعلم أنه قد أخذ كل الحياة، وملأها بنفسه، وجعلها ما ينبغي أن تكونه :

شركة مع الله، سر حضوره ومحبته.

وفقط في الملكوت يمكننا أن نعترف مع القديس باسيليوس أن

«هذا الخبز هو بالحق كله

الجسد الثمين لربنا،

وهذا الخمر الدم الثمين للمسيح».

وما هو «فائق للطبيعة» هنا في «هذا العالم» يُستعلن كأمر «طبيعي» هناك.

ولأنه دائماً ما يقودنا «هناك» ويجعلنا ما نحن عليه، أن الكنيسة تحقق ذاتها في الليتورجيا. (العبادة الشعبية في القداس الإلهي).

ـ ١٤ ـ

والروح القدس هو الذي «يظهر» الخبز كجسد المسيح والخمر كدم المسيح[1].

وقد أصرّت الكنيسة الأرثوذكسية على الدوام أن تحول العناصر الإفخارستية يتم باستدعاء الروح القدس (الإبكليسيس) Epiclesis وليس بواسطة كلمات التأسيس. وهذا التعليم، رغم ذلك، قد أساء فهمه الأرثوذكس أنفسهم.

والمهم في الأمر ليس في استبدال «سببية» ما ـ وهي كلمات التأسيس ـ بسببية أو علة أخرى وهي ـ الصياغة ـ المختلفة.

---

(١) انظر قداس القديس باسيليوس (القداس الباسيلي). «... وأظهر هذا الخبز كما بالحق الكامل الجسد الثمين، وهذه الكأس كما بالحق الكامل (الأليثيا) الدم الثمين»

بل إنها تكشف وتستعلن السمة الأخروية
(الاسخاتولوجية) للسر الكنسي.
فالروح القدس يأتي في يوم الخمسين
«الأخير والكبير».
وهو يستعلن العالم الآتي.
وهو يقوي ويعزّز الملكوت.
وهو دائماً ما يأخذنا فيما وراء (هذا العالم الحاضر)
وأن نكون في الروح معناه أن نكون في السماء
لأن ملكوت الله «فرح وسلام في الروح القدس» .

هكذا، فالروح القدس في الإفخارستيا، هو الذي «يختم» و «يقنن» و«يؤكد» (يثبت) صعودنا إلى السماء، هو الذي يحول ويغيّر الكنيسة إلى جسد المسيح. ومن ثم يستعلن عناصر تقدمتنا «كشركة في الروح القدس».

وهذا هو التكريس والتقديس.

ـ ١٥ ـ

ولكن قبل أن نتمكن من الشركة في الطعام السماوي، يبقى أخيراً فعل ضروري للغاية وأخير :

الشفاعة أو الوساطة Intercession.

أن نكون في المسيح معناه أن نكون مثله،
أن نجعل حركتنا هي ذات حركة حياته فعلاً.
ومثلما أنه هو
«حي في كل حين ليشفع» لجميع
«الذين يتقدمون به إلى الله» (عب ٧: ٢٥).

لهذا لا يمكننا إلا أن نقبل شفاعته، وكأنها شفاعتنا نحن، فالكنيسة ـ سواء

على مستوى الشركة أو الفرد - وفي سبيل تذوقها السرى للأبدية، ليست مجتمعا يهرب من هذا العالم.

فالشركة (في القداس) ليس «خبرة محتجبة» :

فنحن نشرب من كأس المسيح

وهو قد قدّم نفسه لأجل حياة العالم.

والخبز على الصينية والخمر في الكأس

هما لتذكيرنا بتجسد ابن الله، وبالصليب وبالموت.

هكذا فإن منتهى الفرح، فرح الملكوت،

هو الذي يجعلنا نتذكر العالم ونصلي لأجله.

إنها الشركة بكل عمقها مع الروح القدس :

هي التي تمكننا أن نحب العالم بمحبة المسيح.

والإفخارستيا هي سر الوحدة

و «لحظة الحق» :

فنحن هنا نرى العالم في المسيح كما هو بالحق وبالفعل،

وليس من خلال وجهات نظرنا الخاصة ومن ثم القاصرة والمحدودة والجزئية.

وهنا تبدأ الشفاعة،

في مجد الوليمة المسيانية (المسيحانية)

وهذه هي البداية الحقيقية الوحيدة

لرسالة وخدمة الكنيسة

وحين،

«نتخلى عن كل الهموم الأرضية»

نبدو وقد تركنا «هذا العالم»،

ونبدأ في الحقيقة نستكشفه بكل واقعه وحقيقته.

وتُشكِّل الشفاعة، هكذا، الاستعداد الحقيقي

الوحيد للشركة (التناول).

لأنه في الشركة وبها لا نصبح جسداً واحداً وحسب، وروحاً واحداً وحسب، بل نُستعاد إلى تلك الوحدة وهذه المحبة التي فقدها العالم .

والصلاة الإفخارستيا الكبرى تتجمع الآن في الصلاة الربانية، وكل توسل فيها يتضمن التكريس والولاء الكامل والمكتمل لملكوت الله في العالم.

إنها «صلاته هو» وقد أعطاها لنا، وجعلها صلاتنا.

عند هذه النقطة تختفي وتذوب تماما كل استحقاقاتنا وتقوانا الشخصية وكل برنا الذاتى.

وتأتي الحياة إلينا من جديد «كهبة»

هبة إلهية ومجانية.

لهذا نحن نسمي في الكنيسة الأرثوذكسية العناصر الإفخارستية بالعطايا أو الهبات المقدسة (القدسات).

ويدخل آدم من جديد إلى الفردوس وهو المخلوق من العدم والمتوج ملكاً على الخليقة.

كلُ شيء مجّاني

لا شيء لك وكأنه حق مكتسب

ومع ذلك فكل شيء يُعطى ويُزاد

ولهذا، فمن أعظم درجات الوداعة والطاعة

أن «نقبل» العطية،

وأن نقول نعم.

في فرح وشكر (إمتنان).

لا شيء يمكننا أن «**نعمله**»،

ومع ذلك نصبح كل ما أرادنا الله في مقاصده الأزلية

أن نكونه
حين نكون «إفخارستيين».

ـ ١٦ ـ

والآن قد حان الوقت لنا أن «نعود إلى العالم».
يقول الأب الكاهن حين يترك المذبح :

«فلنمض بسلام» أو «امضوا بسلام».

وهذه هي «الوصية» الأخيرة لليتورجيا . لا يجب علينا أن نبقى على جبل طابور. مع أننا نعرف أنه جيد لنا أن نكون هناك.
بل نُرسل إلى هنا.
لنعود.
ولكن الآن «قد رأينا النور الحقيقي،
وقبلنا الروح السماوي».
وكشهود لهذا النور،
وكشهود للروح،
علينا أن «نخرج» و «ننطلق»
ونبدأ خدمة الكنيسة التي لا تنتهي.

الإفخارستيا كانت «نهاية» الرحلة.
نهاية الزمان.
والآن، إنها «البداية» مرة أخرى،
والأمور المستحيلة ها هي الآن تستعلن من جديد لنا
كأمور ممكنة.

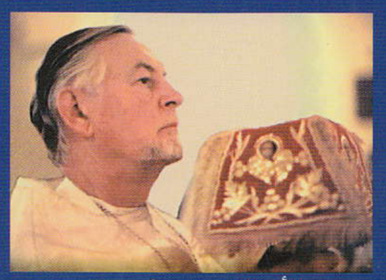
إن زمان العالم قد أصبح زمان الكنيسة،
زمان الخلاص والفداء .
وقد جعلنا الله «قادرين أكْفَاء» مثلما
قال بول كلوديل ، أكفاء على أن نكون
شهوده.
وأن نحقق ما كان قد فعله
ولا يزال يفعله على الدوام وحتى الآن.

هذا هو معنى الإفخارستيا
وهذا هو السبب،
الذى لأجله تبدأ خدمة الكنيسة في ليتورجيا الصعود.
لأن هذه الليتورجيا وحدها،
هي التي تجعل ليتورجيا الخدمة ممكنة.

╬╬╬

هناك قلة من الارثوذكس، ربما في مصر، هم الذين يعرفون الأب الراحل الكسندر شميمن ويألفون كتاباته:

«الافخارستيا»، «سر الملكوت»، «من أجل حياة العالم»، «بالماء والروح»، «رحلة الى الفصح البصخة» وغيرها من الكتب.



الأب الكسندر شميمن

من يقرأ أعمال هذا الأب الروسى الراحل، يلتقى بإنسان عرف كيف يفكر ويتأمل بطريقة مسيحية حقيقية ،نافذة الى عمق أعماق **الخبرة** الليتورجية (العبادة الكنسية) : خبرة القداس الأرثوذكسي ومنهجه وهدفه .

أما الخبرة، فهى تلك المذاقات الحية التى تخترق النفس والقلب والوجدان، فى سر الافخارستيا، سر حياة الدخول الى الملكوت ،سر الشركة مع الله والقديسين والملائكة ،على مائدة الرب فى ملكوت أبيه، في الزمان والمكان الجديدين: فى زمان غير زماننا الساقط وفى مكان غير هذا العالم الساقط الذى وضع فى الشرير،تلك هى خبرة الملكوت التى تذوقها وكتب عنها الأب الكسندر شميمن.

أما عن المنهج، فهو يفحص ويدقق فى الخبرة الليتورجية نصا وروحا، لينقّيهما من المداخلات الغربية الغريبة: من الفكر اللاهوتي المدرسي الوسيط والذى اقتحم كثيرا من مناهجنا الليتورجية.

وأما عن الهدف، فإن الأب شميمن، وبعد أن **تذوق** سر الملكوت كسر الدخول إلى فرح السيد الرب، فهو يبسط أمام قرائه الهدف من الأسرار الكنسية عامة وسر الأسرار، الأفخارستيا خاصة، أن نبلغ قامة ملء المسيح، رأس الكنيسة، في شركة وجود حية وفعالة، متحدين به في الروح القدس، العامل في الأسرار، وفي الكنيسة.

لم يكن التأمل في حياة الأب الكسندر شميمن مجرد قراءة نظرية لنصوص الكتاب المقدس أو النصوص الليتورجية في الكنيسة، بل كان وكما تعرفه المعاجم المتخصصة، «تكريسا شخصيا» للرب في كل حياته وخدمته، هكذا فعل عميد معهد فلاديمير للدراسات الارثوذكسية، في محاضراته اللاهوتية وفي كتاباته وفي خدمته، كراع وخادم لسر الافخارستيا. وتعكس كل كتاباته روح إنسان عشق عشرة الله، الشخصية والعبادية في إخلاء حقيقي للنفس ليكون الله هو الكل في الكل.

هكذا يرى القارئ في كل سطر من سطور كتبه الشهيرة، لا مجرد الإدراك الفكري النظري المجرد من روح الشركة، بل فعل الشركة الشخصية مع الله،من خلال الحياة السرائرية للكنيسة.

لقد أراد شميمن أن يرى الأرثوذكس كل الارثوذكس في كل المسكونة ما سبق أن اختبره هو ، الحياة .....كسر شركة مع الله